كتاب العين وموقف علماء اللغة منه حتى نهاية القرن الرابع الهجري

الدكتور محمد جبار المعيبد
(جامعة البصرة)

تقديم ...

هذا البحث جزء من بحث أوسع يتناول (الخليل وكتاب العين) ، إذ طالما تساءل الأقدمون والمحدثون : ما مدى العلاقة بين (الخليل) و (كتاب العين) ؟ .. الأقدمون يكادون يجمعون على الشكّ في نسبة هذا الكتاب ، كلّه أو بعضه ، إلى الخليل . لكنهم يختلفون درجات في هذا الشكّ :

فمنهم ، أولاً ، من يرد الكتاب كلّه عن الخليل إجلالاً له .

ومنهم ، ثانياً ، من ينسب فكرة الكتاب وخطّته إليه ، ولكنه ينفي نسبة المادة اللغوية إليه لاضطرابها وما فيها من أوهام أو أخطاء .

أما القسم الثالث من هؤلاء الأقدمين فتعلقوا برواية تقول : إن الخليل كتب باب العين فقط ، وإن باقي الكتاب أكمله الليث أو غيره .

وهناك قسم رابع ، وهم قلّة قليلة ، تنسب الكتاب تأسيساً وحشواً إلى الخليل .

الذين يرفضون نسبة المادة اللغوية في الكتاب إلى الخليل من الأقدمين ـ وأبرزهم أبو منصور الأزهري وأبو بكر الزبيدي ـ بنوا رفضهم على أسس وحجج أطالوا في شرحها وعرضها ، وهي مقنعة في الغالب ، واستندوا إلى الكتاب يستخرجون منه النصوص ويردون عليها .

أما المحدثون ، فالغالبية منهم مالت في دراساتها إلى نسبة الكتاب إلى الخليل ، لكنّ معظم هذه الدراسات ، على كثرتها ، لم تعتمد العين ـ مخطوطاً أو مطبوعاً ـ مصدراً من مصادرها ، وإنما تعتمد الأقدمين وأقوالهم أو المعجمات وما نقلت عن العين .

لذا فإن أيّة دراسة تتناول (الخليل وكتاب العين) لا بد من أن يكون لكتاب العين ـ وقد طبع ـ النصيب الأوفر فيها .

وسيكون هذا المبحث مدخلاً إلى هذه الدراسة ، وسيتناول موقف الأقدمين من هذا الكتاب ، بدءاً بالنضر بن شميل من أصحاب الخليل وانتهاءً بالجوهري آخر علماء القرن الرابع الهجري . يتلوه ، إن شاء الله ، بحث آخر يتناول دراسة مادة الكتاب اللغوية .

من هــو الليـث ؟

على الرغم من الشهرة الواسعة التي حظي بها كتاب (العين) ، وتردد اسم الليث معه ونسبته إليه ، فإن الدارس لا يكاد يعثر على ما يروي ظمأه عن هذا العَلَم الذي ارتبط اسمه برجلٍ كالخليل وكتابٍ كالعين .

تذكر المصادر أنه : الليث بن المظفر بن نصر بن سيّار[1] . ونصر بن سيّار قائدٌ ووالٍ عربيّ على خراسان للأمويين من عام ١٢٠ - ١٣١هـ .

ويبدو أنّ أسرته وعشيرته لم يبارحوا خراسانَ بعد مجيء العباسيين إلى الحكم ، إذ ظلّت لهم مكانة وحُظْوة في هذا الإقليم الذي سكنته قبائل عربية شتّى .

لا نعرف لليث سنةَ ولادةٍ ، كما لم تؤرخْ المصادر لوفاته . ويذهب الدكتور حسين نصّار[2] مذهب من يجعلُ وفاتَه ، ترجيحاً ، في سنة ١٨٠هـ ، وهو تاريخ لا نطمئن إليه ، لأنّ هناك روايةً تشير إلى معاصرته المأمونَ . يقول ابن النديم[3] « جهد به المأمون أن يوليه القضاء فلم يقبل » . ويبدو أنّ اتصاله بالمأمون كان في أثناء وجود الأخير في خراسان وحربه مع الأمين .

الذي نعرفه عنه اهتمام أبيه ، المظفر بن نصر ، به . فقد لاحظ تأثير اللغة الفارسية على لغة ابنه العربية « فسيّره إلى البادية فمكث فيها قريباً من عشر سنين أو أكثر ، ففيها تأدّب ثم رجع »[4] .

---

(١) معجم الأدباء ١٧/٥٠ ، وقد يرد في بعض المصادر اختصاراً باسم : الليث بن نصر بن سيّار .

(٢) المعجم العربي ١/٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٣) الفهرست ٤٩ ، وفيه (فلم يفعل) ، وهو تحريف .

(٤) معجم الأدباء ١٧/٥٠ - ٥١ .

وصفه أحد معاصريه ، وهو عالم خراسان إسحاق بن إبراهيم المعروف بابن راهويه المروزي ، بأنه « رجل صالح »[1] . كما وصفه ابن النديم بأنه « من الفقهاء والزهّاد »[2] . أمّا ابن المعتز[3] فقال عنه : « من أكتب الناس في زمانه ، وكان بارع الأدب بصيراً بالنحو والشعر والغريب ، وكان يكتب للبرامكة ، ويطير معهم في دولتهم بجناحين ، وكانوا به معجبين » .

وكان إلى جانب علمه وأدبه ذا معرفة بالنجوم وتعبير الرؤيا . ومن خلال هذه المعرفة اتّصل بعليّ بن عيسى بن ماهان والي خراسان للرشيد[4] .

مات الليث وترك ولداً يقال له رافع . يبدو فضله من خلال اتصال إسحاق بن راهويه المروزي به وروايته عنه[5] ، كما ذكر الطبري[6] أنه كان أحد الثائرين على العباسيين في سمرقند .

الخليـل والليـث

من خلال ما تقدّم ، يتّضح لنا أنّ الليث كان خراسانياً ولادةً وسكناً ، ويتخذ من مروَ ـ قاعدةِ خراسانَ ـ مدينةً لسكناه . وعلى الرغم من عدم وجود إشارة إلى رحلته إلى العراق في المصادر التي ترجمت له ، فإن الليث ، في كلام له في العين[7] ، أشار إلى وجوده في البصرة ، فضلاً عن إشارات أخرى إلى ذهابه إلى الحجّ[8] .

(١) تهذيب اللغة ٢٨/١ .
(٢) الفهرست ٤٩ .
(٣) طبقات الشعراء ٩٧ .
(٤) معجم الأدباء ٤٩/١٧ .
(٥) المصدر السابق .
(٦) تاريخه ٣١٩/٨ (حوادث سنة ١٩٠ وما بعدها) .
(٧) ١٨٣/٣ ، وعنه في تهذيب اللغة ٤٢٢/٤ .
(٨) العين ١٨٣/٣ ومعجم الأدباء ١٧/ ٥٢ .

وقبل أن نتوغل في الحديث عن علاقة الرجلين ، لا بد لنا أن نسأل : لماذا ؟ لماذا نشأت هذه العلاقة بين رجل عالِم عَلَم بين رجال عصره ، له أصحاب وتلاميذ كالخليل ، وآخر ليست له شهرة الخليل ولا عِلْمه كالليث ؟ تفصل بينهما مسافات شاسعة بحساب تلك الأيام وحساب أيامنا هذه . هذه العلاقة تدفع بالخليل العالم إلى الارتحال إلى خراسان والبقاء فيها مدة لا بد أن تكون طويلة كي يؤلف كتاباً كالعين ويهديه إلى من رحل إليه .

ما أرجّحه أن اللقاء تمّ بين الرجلين في مكّة في موسم من مواسم الحج[1] ، حيث وجد رجلٌ سَريّ ثَريّ وجيهٌ كالليث ، رجلاً كالخليل في علمه وفضله ممّا جعله يرافقه إلى بلده ، البصرة ، لسماع المزيد من علمه ومعرفته . وتتكرّر اللقاءات بين الرجلين في مكة والبصرة وتتعمق ، وتكون خاتمتها دعوة الليث الخليلَ إلى بلده خراسان .

وقد عبّرت المصادر التي ترجمت للرجلين عن هذا اللقاء بشكل لا يتفق وما عرف عن الخليل من زهد وعِفّةِ نفسٍ . فابن المعتز[2] يقول : « كان الليث من أكتب الناس في زمانه وكان بارع الأدب ، بصيراً بالنحو والشعر والغريب .... فارتحل إليه الخليل بن أحمد ، فلما عاشره (الليث) وجده بحراً فأجزل له وأغناه . وأحبّ الخليل أن يهدي إليه هدية تَليق به ... فجهد نفسه في تصنيف كتاب العين ... فوصله (الليث) بمائة ألف درهم ... » .

الرواية أعلاه تجعل سبب ارتحال الخليل إلى الليث كون الأخير « بصيراً بالنحو والشعر والغريب » وأن الليث لمّا وجد الخليل « بحراً » « أجزل له وأغناه » . ولما أراد الخليل أن يقدّم هدية إلى الليث جزاءَ إكرامِه صنّف له كتاب العين ، وهنا عاود الليث إكرام الخليل « فوصله بمائة ألف درهم » .

---

(١) قال المرزباني : وكان الخليل يحجّ سنة ويغزو سنة إلى أن مات (نور القبس ٥٦) .

(٢) طبقات الشعراء ٩٧ .

الذي يتضح لنا من هذه الرواية أن الخليل لم يستفد علماً من الليث وإنما استفاد مالاً ، وهو خلاف ما عرف عنه من زهد . فقد كتب إليه سليمان بن علي الهاشمي[1] (والي البصرة) ـ وهي بلده ـ يستدعيه إلى صحبته ، وبعث إليه بطرف وكسا ومال وفاكهة ، فقبل الفاكهة وصرف ما سوى ذلك وكتب إليه أبياتاً ، منها هذا البيت الأول :

أبلـغ سليمان أني عنه في سعـة

وفي غنى غيـر أني لست ذا مال

أيّاً كانت الأسباب التي دعت الخليل إلى مصاحبة الليث إلى خراسان ، أو الارتحال إليه ، فإنها ـ بلا شك ـ لم تكن أسباباً مادية ، إذ لم يكن همّ الخليل الجريَ وراء المال أو الجاه . وها هو صاحبه وتلميذه النضر بن شميل يقول[2] : « أقام الخليل في خصّ من أخصاص البصرة لا يقدر على فلس ، وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال » . ويقول آخر من تلاميذه ، وهو علي بن نصر الجهضمي[3] ، « كان الخليل بن أحمد من أزهد الناس وأعلاهم نفساً وأشدّهم تعففاً ، ولقد كان الملوك يقصدونه ويتعرضون له لينال منهم ولم يكن يفعل . وكان يعيش من بستان له خلفه عليه أبوه بالخريبة » .

وصل الخليل إلى خراسان بصحبة الليث . المصادر كعادتها سكتت عن تسجيل تاريخ وصوله إليها ، فلم تذكر زمن خليفة أو وال من ولاة خراسان . ما أرجحه ، أيضاً ، أن هذا حدث في أواخر أيّام حياة الخليل ، إذ بعد رجوعه إلى البصرة لم تمهله المنية وقتاً كي يتحدّث إلى أصحابه عن فكرة بناء كتاب العين . وهذا يفسّر جهل أصحابه وتلاميذه بهذا الكتاب . وإلاّ فما الذي يدعو الخليـل إلى عدم إطلاع أصحابه

(١) طبقات النحويين للزبيدي ٤٧ .

(٢) أنباه الرواة ١/٣٤٥ .

(٣) مراتب النحويين ٢٩ .

على كتاب له خطورته ككتاب العين ؟ وما الذي يدعو ـ أيضاً ـ أصحاب الخليل إلى إنكار الكتاب وهم عارفون به ومطلعون عليه ؟

ويبدو أن الخليل بقيَ في خراسان أكثر من عام ، كما نستنتج من الرواية التالية التي يرويها عن الليث تلميذه وراوي كتاب العين أحمد[1] بن منصور الزاج ، وهو مروزيّ من خراسان ، وعن الزاج يرويه عليّ بن مهديّ الكسرويّ الأصبهانيّ ، وعنه ابن درستويه . يقول الليث[2] :

كنت أصير إلى الخليل بن أحمد ، فقال لي يوماً : لو أنّ إنساناً قصد وألّف حروفَ : أ ب ت ث على ما أُمثّله لاستوعب في ذلك جميعَ كلام العرب ، وتهيّأ له أصلٌ لا يخرج عنه شيء البتَةَ . قال (الليث) : فقلت له : وكيف يكون ذلك ؟ قال : يؤلّفه على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ، فإنه ليس يَعرف للعرب كلاماً أكثر منه .

قال الليث : فجعلت أستفهمه ويصفُ لي ولا أقف على ما يصف ، فاختلفت إليه في هذا المعنى أياماً . ثم اعتلّ ، وحججتُ ، فما زلتُ مشفقاً عليه وخشيت أن يموت في علّته فَيَبْطُل ما كان يشرحُه لي . فرجعت من الحج وصرت إليه ، فإذا هو قد ألّف الحروفَ كلها على ما في صدر هذا الكتاب . فكان يملي عليّ ما يحفظ ، وما شكّ فيه يقول لي : سَلْ عنه فإذا صحّ فأثبته ، إلى أن عملت الكتاب .

إن صحّ هذا الخبر عن الليث ، فهو صورة صادقة للواقع الذي قام عليه تأليف (العين) ، والواقع الذي يعكسه الكتاب في صورته التي وصلت إلينا . فكتاب العين ، من خلال الخبر ، كان فكرةً طرأتْ على بال الخليل (... فقال لي يوماً : لو أنّ إنساناً قصد وألّف حروف ...) ، وحينما استفهم منه الليث عن الأمر وصف له الخليلُ فكرةَ

(١) في المصدرين التاليين : محمد بن منصور ، وهو تحريف .

(٢) الفهرست ٤٨ ، وعنه في معجم الأدباء ١٧/٥١ .

الكتاب وطريقةَ ترتيب المعجم ، ولكنّ الليث كان لا يفهم ما يصف له الخليل . ويمرض الخليل ، ويحجّ الليث تاركاً الخليل في خراسان . وحينما يعود من الحجّ يجد الخليل قد ألّف الحروف كلها على ما هي في مقدمة كتاب العين ، أي أنّ خطة الكتاب ومنهجه وفكرة ترتيبه قد أنجزها الخليل في أثناء تغيّب الليث في الحجّ .

بعدها يأتي دور الليث في حشو الكتاب بالمادة اللغوية ، يقول الليث (وكان يملي عليّ ما يحفظ وما شكّ فيه يقول لي : سل عنه فإذا صحّ فأثبته ، إلى أن عملت الكتاب) . فالسطور الأخيرة صريحة في إلقاء الخليل تبعة إكمال الكتاب على الليث ، والليث صريح في قوله (إلى أن عملت الكتاب) .

ويعلّق الدكتور حسين نصار[1] على قول الليث : (وما شكّ فيه (الخليل) يقول لي سل عنه فإذا صحّ فأثبته ...) ، يقول : (وكان لهذه النصيحة أثرها الخطير في العين ، إذ يبدو أنّ الليث أخذ يسأل من قابله من الأعراب والعلماء ، ويبحث عن روايات غير الخليل من الأثبات ويدخلها دون تحرّج) .

ما أراه أن الخليل بدعوته الليث هذه ، أو نصيحته ، كان لا ينوي أن يقوم هو نفسه بتأليف الكتاب ووضع مادته اللغوية وإنّما كان يوضّح نهجاً أو طريقاً لإتمامه ، وإلاّ فمن غير المعقول أن يطالبه بسؤال الآخرين عن مادته اللغوية وهو حيّ ، إلا إذا كان الخليل يشعر شعوراً صادقاً أن الكتاب ليس من تأليفه .

ويعود الخليل إلى بلده البصرة ، وينتقل بعدها إلى جوار ربّه ، وأصحابه وتلاميذه جاهلون أمر الكتاب . ربّما ـ كما أشرنا سلفاً ـ لأن الخليل رجع عليلاً فلم تمهله المنية وقتاً كي يخبر أصحابه عن فكرة بناء الكتاب ، أو ربما كان شعور الخليل وإحساسه أن الكتاب ليس له وإنما هي فكرة وخطة ألقاهما إلى الليث كي يقوم هو بتنفيذها ويحشو الكتاب بالمادة اللغوية .

---

(١) المعجم العربي ١/٢٩١ .

أمّا الليث فيبدأ بتنفيذ نصيحة الخليل بسؤال المترددين على خراسان من العلماء والأعراب الواقفين على باب عبدالله بن طاهر ، فضلاً عن الكتب ـ والخزانة الطاهرية قريبة منه ـ . وحينما تتهيأ نسخة منه ، يبدأ الليث برواية الكتاب ناسباً إيّاه إلى الخليل ، لا لينفّق الكتابَ ، كما يرى الأزهري[1] ، وإنّما لشعوره أنّ أصوله ترجع إلى الخليل . ولعلّ ورعه وزهده منعاه من أن ينكر للخليل فضلاً في تأسيس هذا الكتاب .

روايـــة الكتـــاب

بقي (العين) في خراسان في حياة الليث . إذ بعد أن اكتمل الكتاب وأودعت نسخة منه في الخزانة الطاهرية في خراسان ، أراد الليث نشر الكتاب ، بروايته ، فلم يقبل عليه أحد من أعلام اللغة والنحو من مصري العراق : البصرة والكوفة . فقد أنكره اثنان من أصحاب الخليل المترددين على خراسان ، وهما : النضر بن شميل وعلي بن نصر الجهضمي ، كما لا نجد للكتاب أثراً في مؤلفات أبي عبيد القاسم بن سلام الذي كان يتردد على عبدالله بن طاهر والي خراسان ، فلم يلتفت اليه أحد ولم ينقل عنه ، مع وجود نسخة منه في الخزانة الطاهرية ، كما أسلفنا .

وهكذا نجد الطبقة الأولى ممن حملوا الكتاب عن الليث أناساً أغماراً من أهل مرو الشاهجان وما يجاورها من مدن خراسان وفارس . وهم :

١ ـ محارب[2] .

٢ ـ أبو عكرمة[3] .

---

(١) تهذيب اللغة ٢٨/١ .

(٢) تهذيب اللغة ٣٠/١ .

(٣) مجمل اللغة ٢٥/٢ .

٣ ـ أبو معاذ عبدالجبار بن يزيد[١] .

٤ ـ أبو معاذ النحوي عبدالله بن عائذ[٢] .

٥ ـ معروف بن حسان[٣] .

٦ ـ أحمد بن منصور الزاج[٤] .

٧ ـ بندار بن لَـرّة الكَـرَجِي[٥] .

الأربعة الأوائل من هؤلاء مجهولون لا نعرف عنهم غير أسمائهم أو كُـنَاهم . والخامس ذكره الأزهري[٦] عَـرَضاً ، وترجم له القفطي[٧] ترجمة مقتضبة لا تدل على شهرته ، وتكفّلت مقدمة (العين) المطبوعة[٨] بحفظ اسمه ، ففيها : (قال أبو معاذ عبدالله بن عائذ حدثني الليث بن المظفر بن نصر بن سيّار عن الخليل بجميع ما في هذا الكتاب) .

---

(١) فهرسة ابن خير ٣٥٠ .

(٢) مجمل اللغة ٥٧٢/٤ وحلية الفقهاء ٧٢ .

(٣) مجمل اللغة ٥٧٢/٤ ومقاييس اللغة ٤/١ .

(٤) الفهرست ٤٨ ومعجم الأدباء ٥١/١٧ .

(٥) الصاحبي ٦٢ و ١٩٣ ومقاييس اللغة ٤/١ وحلية الفقهاء ٢١ و ١٣١ .

(٦) تهذيب اللغة ٢٥/١ .

(٧) أنباه الرواة ١٧٩/٤ .

(٨) ٢٨/١ .

والأخيران من هؤلاء الرواة نالا حظّاً وشهرة[1] بعد رحيلهما إلى العراق[2] ، ممّا جعلهما يصبحان علمين يؤخذ عنهما في مجالس العلم في بغداد .

هذه الطبقة الأولى من الرواة الخراسانيين روت الكتاب ، بعد وفاة الليث ، في موطنها من بلاد فارس . تناولته بعدها طبقة ثانية يبدو أنهم ممن سكنوا بلاد فارس أيضاً ، أي أن الكتاب لم يخرج إلى العراق ، روايةً عن هؤلاء ، إلاّ بعد منتصف القرن الثالث الهجري أو قبله بقليل .

---

(١) ترجم لأحمد بن منصور الزاج كلّ من :

أ ـ الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٥/١٥٠ ـ ١٥١ .

ب ـ القفطي في أنباه الرواة ١/١٣١ .

جـ ـ النووي في تهذيب الأسماء واللغات ١/١١٣ .

لقد وقع تحريف في اسم الزاج في الفهرست (ط. فلوكل ص ٤٣) و (ط. مصر ص ٧١) وجاء بالصورة التالية (محمد بن منصور بن الليث بن المظفر) ، وصوابه (أحمد بن منصور عن الليث ...) ، نتيجة هذا التحريف أن عدّ الدكتور حسين نصار (المعجم العربي ١/٢٨٣) والدكتور محمد حسين آل ياسين (الدراسات اللغوية .. ص ٢٣٠) الزاج حفيداً لليث .

وترجم لبندار بن لرّة الكرجي كل من :

أ ـ ابن النديم في الفهرست ٩١ .

ب ـ ياقوت في معجم الأدباء ٧/١٢٨ ـ ١٣٤ .

جـ ـ القفطي في أنباه الرواة ١/٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

د ـ السيوطي في بغية الوعاة ١/٤٧٦ .

(٢) رحل الزاج إلى بغداد سنة ٢٥٤هـ ، وتوفي سنة ٢٥٧ (تاريخ بغداد ٥/١٥٠ ـ ١٥١) ، أما بندار الكرجي فذكر ياقوت أنه (كان ممن استوطن الكرج ، ثم خرج منها إلى العراق فظهر هناك فضله) . ويبدو أن خروجه إلى العراق كان في زمن المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ) . انظر : معجم الأدباء ٧/١٢٨ ـ ١٣٤ .

فابن فارس (ت ٣٩٥هـ) الهمداني القزويني ليس في سندِ روايتِه كتابَ العين رواة عراقيون[١] . وروايـة ابن درستويـه[٢] (ت ٣٤٧هـ) وابن ولاد النحـوي[٣] (ت ٢٩٨هـ) الكتاب كانت عن علي بن مهدي الكسروي (ت بين ٢٨٣ - ٢٨٩هـ) وهو أصبهاني عن أحمد بن منصور الزاج (ت ٢٥٧هـ) ، وهو مروزيّ . وشمر بن حمدويه[٤] (ت ٢٥٥هـ) وهو هرويّ ، روى الكتاب عن مجهول اسمه محارب ، وهو رجل من أهل مرو عن الليث .

وهكذا يمكن القول إن ولادة كتاب العين وروايته كانتا في مكان بعيد عن بلد الخليل البصرة . وحينما وصل الكتابُ - أو أخبارُه - إليها أنكره أصحاب الخليل وتلاميذه ومن في طبقتهم لسببين متلازمين :

١ ـ عدم معرفتهم بالكتاب ، وهو أمر لم يتعودوه من الخليل .

٢ ـ الاضطراب الذي يكتنف الكتاب ، مما لم يتعوّدوه أيضاً في علم الخليل .

وهكذا ، مرة أخرى ، لا نجد أحداً من علماء اللغة في العراق أومَنْ تردد على العراق من علماء المشرق يروي الكتاب بسند عن الليث سوى ابن درستويه وأحمد بن فارس ، وذلك لكونهما من بلاد فارس ولادةً ونشأةً ، الأول من مدينة (فسا) ، والثاني من مدينة (همدان) .

ويظلّ الكتاب في خراسان ، ولكنّ أخباره كانت ترد العراق ، والبصرة بخاصة ، من غير أن يكلّف أحد من علماء اللغة والنحو نفسه الاطلاع عليه أو الحديث عنه . يقول ابن دريد (وكنا نسمع بهذا الكتاب أنه بخراسان في خزائن الطاهرية)[٥] .

---

(١) انظر : مبحث (ابن فارس) فيما يأتي من البحث .

(٢) الفهرست ٤٨ .

(٣) فهرسة ابن خير ٣٥٠ .

(٤) تهذيب اللغة ١/٣٠ .

(٥) الفهرست ٤٨ .

وفي منتصف القرن الثالث الهجري ، ويحدد ابن دريد التاريخ بسنة ٢٤٨هـ ، يقدم البصرة بالكتاب وراقٌ من خراسان في ثمانية وأربعين جزءاً ، فيبيعه بخمسين ديناراً[١] . وهنا تحدث المواجهة بين هذا الكتاب الذي يحمل اسم الخليل وبين من يعدّ نفسه منتمياً إلى تلاميذ الخليل وأصحابه عِلماً ومنهجاً من علماء البصرة .

لم يكن الإنكار ، كما أسلفنا ، قائماً على كون الكتاب غير معروف عند أصحاب الخليل وأنه لم يخصهم برواية الكتاب حسب ، وإنما كان ، فضلاً عن ذلك ، ينصبّ على الخلل الذي اكتنف مادته اللغوية . وقد عبّر أبو علي القالي عن هذا بقوله[٢] : (وكيف لا يُنكره أبو حاتم على أن يكونَ بريئاً من الخلل سليماً من الزلل) .

وعلى الرغم من هذا الإنكار فإن الأيدي تتداول الكتابَ ، فيكتشف الدارسون فيه منهجاً جديداً لم يعهدوه من قبل . فقد كان الكتاب أول سفر في العربية يجمع بين دفتيه محاولة لجمع مفردات اللغة العربية . ومنهجه ، على الرغم من صعوبته وتعقيده ، لم يكن مقبولاً فحسب ، وإنما ترك أثراً عند الجيل التالي لمنكري هذا الكتاب ، وإن ظلّت المادة اللغوية وما فيها من اضطراب الدافعَ للمنكرين على رفض نسبة الكتاب إلى الخليل .

حتى إذا ما انتصف القرن الرابع الهجري وجدنا الكتاب ينتشر انتشاراً سريعاً وواسعاً ، ويبدأ النقـل عنه ويبدأ التأثير . التأثير جـاء سريعاً على يد ابن دريد البصري (ت ٣٢١هـ) الذي عاصر ، وهو شاب في الخامسة والعشرين ، وصول أول نسخة من العين إلى البصرة . إذ بعد خمسين عاماً يملي ابن دريد كتابه (الجمهرة) الذي لا يَخفَى على القارئ والدارس إفادته من كتاب العين منهجاً ومادة ، بل كان المحفّز والدافع إلى تأليفه .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المزهر ٨٣/١ .

ويمتد التأثير وينتقل إلى علماء آخرين في هذا القرن والقرون التالية ، لكن الشكّ في نسبة الكتاب إلى الخليل بن أحمد يبقى يتردد طوال هذه القرون .

الصفحات التالية تدرس مواقف علماء اللغة وأصحاب المعجمات[1] من هذا الشكّ حتى نهاية القرن الرابع الهجري . وسنجد بعض هؤلاء يرددون أقوال من سبقهم وكأنهم لم يطلعوا على كتاب العين ، على حين نجد آخرين منهم بنوا إنكارهم أو تأييدهم على دراسة فعليه له واطلاع دقيق على مادته .

(العين) وأصحاب الخليل

عاصر الخليل ، أو تلمذ له ، جمهـرة كبيرة من علماء عصره ممن نالوا نصيباً وافراً من الشهرة في حياته أو بعد وفاته ، كالأصمعي وأبي محمد اليزيديّ وسيبويه والأخفش وأبي زيد الأنصاريّ والنضر بن شُمَيْل ومؤرّج السدوسيّ وعليّ بن نصر الجهضميّ .

هذه الجمهرة من العلماء لا نكاد نجد صدى لكتاب العين في ما روي عنهم أو ما وصل إلينا من مؤلفاتهم ، على الرغم من أنهم جميعاً توفّوا بعد الخليل بزمن ليس بقصير ، باستثناء ثلاثة منهم ، هم : علي بن نصر الجهضمي ومؤرج السدوسي والنضر بن شميل . فقد ذكر ابن النديم[2] معرفتهم بـ (العين) واستدراكهم عليه ، ووصل الأمر ببعض المصادر[3] إلى القول إن النضر بن شميل تمّم (العين) بعد الخليل بخراسان .

---

(١) لقد أبعدت عن هذه الدراسة آراء أصحاب كتب التراجم ، فهم غالباً يعرضون آراء غيرهم ، فضلاً عن نقلهم الآراء المتناقضة .

(٢) الفهرست ٤٩ .

(٣) ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١/٧٠ (طبعة دمشق) و ٥٧ (طبعة مصر) .

ولا غرابة في اطّلاع هؤلاء على (العين) ، فقد غادر النضر بن شميل البصرة بعد وفاة الخليل إلى خراسان ، كما سنرى بعد ذلك ، واتصل مؤرج السدوسي بالمأمون قبل توليه الخلافة ورحل معه من العراق إلى خراسان[1] . أما علي بن نصر الجهضميّ فعلى الرغم من عدم وجود إشارة إلى رحلته إلى خراسان لكننا نفترض وقوع هذه الرحلة لأنه ليس من المعقول أن يكون الكتاب قد وصل إلى البصرة في هذا الوقت المبكر (قبل سنة ١٨٧هـ ، سنة وفاة الجهضمي) ليطّلع عليه ويستدرك .

يبدو لي أن الجهضمي والسدوسي حينما اطّلعا على الكتاب في خراسان ، سواء في الخزانة الطاهرية أو عن طريق أحد الرواة الذين رووا الكتاب عن الليث ، أنكراه وردّاه . ولعل أحد أشكال هذا الإنكار تسجيل ملاحظاتهما على هوامش الكتاب ممّا عدّه من اطّلع عليها استدراكاً على (العين) .

أمّا موقف النضر بن شميل (ت ٢٠٣ أو ٢٠٤هـ) من كتاب العين فتعكسه روايات متناقضة تحكي علاقته بالكتاب . أولى هذه الرويات ينقلها ياقوت الحموي[2]عن كتاب (نيسابور)[3] لأبي عبدالله بن البيع الحاكم رواية عن العباس بن مصعب . يقول العباس : سئل النضر بن شميل عن الكتاب الذي ينسب إلى الخليل بن أحمد ، ويقال له كتاب العين فأنكر ، فقيل له : لعله ألّفه بعدك ؟ فقال : أو خرجت من البصرة حتى دفنت الخليل بن أحمد ! . وهذا يعني أنه سئل هذا السؤال بعد خروجه من البصرة ، أي وهو في خراسان ، البلد الذي يقال إن (العين) موجود في خزانة من خزائنه ، وهي خزانة الطاهريين .

---

(١) مقدمة المحقق على كتاب (الأمثال) لمؤرج السدوسي ، ص ٨ .

(٢) معجم الأدباء ١٧/٥١ .

(٣) طبع تلخيص للكتاب ، لأحمد بن محمد بن الحسن المعروف بالخليفة النيسابوري (طهران ـ بلا تاريخ) ، والنص المذكور أعلاه ليس فيه .

تناقض هذه الرواية رواية أخرى ينقلها أبو أحمد العكسري[1] عن شيخه أبي عمر الزاهد . قال أبو أحمد : (حكى لي أبو عمر محمد بن عبدالواحد خبراً أنا أوجس منه ، ولولا أنه ذكر في إسناده إسحاق بن راهويه ، ومحله من الصدق فيما يحكيه محل جليل لأمسكت عن ذكره . قال : حدثني أبو الحسين النيسابوري عن أبيه ، قال : قال إسحاق بن راهويه قال : النضر بن شميل : كان الليث رجلاً صالحاً ، ومات الخليل ولم يفرغ من كتاب (العين) ، قال : فأحبّ الليث أن ينفّق الكتاب كلّه فسمّى لسان نفسه : الخليل ، فإذا رأيت في الكتاب « سألت الخليل » و « أخبرني الخليل » فيعني الخليل نفسه . وإذا قال : « قال الخليل » فانما يعني لسان نفسه . وإنما وقع الاضطراب في الكتاب من قبل خليل الليث لا من خليل بن أحمد) .

وهذه الرواية ، كما ترى ، مناقضة للرواية السابقة . فهي تؤكد معرفته بالكتاب ، وأن الخليل مات ولم يفرغ منه ، وأن الليث تمّمه ، وما وقع في الكتاب من اضطراب يعود إليه ، أي إلى الليث .

هذه الرواية نفسها يرويها أبو الطيّب اللغوي[2] عن شيخه أبي عمر الزاهد ، وفيها خلاف ستعرفه فيما بعد . يقول اللغوي : أخبرنا محمد بن عبدالواحد الزاهد ، قال : حدثني فتى قدم علينا من خراسان وكان يقرأ عليّ كتاب العين ، قال : أخبرني أبي عن إسحاق بن راهويه قال : كان الليث صاحب الخليل بن أحمد رجلاً صالحاً ، وكان الخليل عمل من كتاب العين باب العين وحده فأحبّ الليث أن تَنْفُقَ سوق الخليل فصنّف باقي الكتاب ... فكلّ ما كان في الكتاب من خلل فإنه منه لا من الخليل بن أحمد) .

---

(١) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١/٧١-٧٢ (دمشق) و ٥٩ (مصر) .

(٢) مراتب النحويين ٥٨ .

أصل الخبر في الروايتين واحد ، هو أبو عمر الزاهد . وناقله أو متلقيه اثنان من تلاميذه هما : العسكريّ واللغويّ . والخبر في الروايتين له دلالة واحدة ، ولكنه يختلف في التفاصيل . والأمر الرئيس فيها هو عدم ذكر النضر بن شميل في الرواية الثانية . يقوّي هذه الرواية ما ذكره الأزهري في مقدمة كتابه (تهذيب اللغة)[1] ، قال : (وأثبت لنا عن إسحاق بن إبراهيم الحنظلي الفقيه[2] أنه قال : كان الليث رجلاً صالحاً ، ومات الخليل ولم يفرغ من كتاب العين ، فأحب الليث أن ينفّق (كذا) الكتاب كلّه ، فسمى لسانه الخليل ...) قال الأزهري (قلت : وهذا صحيح عن إسحاق ، رواه الثقات عنه) .

من خلال هذه المقارنة بين النصوص ورواتها يمكننا أن نستبعد ما رواه أبو أحمد العسكري وإقحامه اسم النضر .

بقي هناك أمر يتعلق بقول لأبي أحمد العسكري ورأيه في من تمّم كتاب العين بعد الخليل ، قال[3] : (فإنّي رأيت مشايخنا كالمجمعين على أن الخليل إنما عمل بعض الكتاب ، وقيل بل عمل حرف العين فقط ، وأن النضر بن شميل تمّمه بخراسان ، واجتمع معه الليث بن المظفر وعليّ بن ساسان الواسطيّ فأضافوا إلى الكتاب ما يجوز وجملاً مما لا يجوز ، رغبةً في أن يكون الكتاب كاملاً تاماً) .

هذا النص فريد في بابه ، فالإجماع بين اللغويين الأقدمين على أنّ الليث ـ لا النضر بن شميل ـ هو الذي تمّمه ، وأنّ آخرين ساعدوه في مهمته ، فكيف ينسب إلى النضر مثل هذا العمل وينسب إليه كتاب بعنوان (المدخل إلى كتاب العين) ؟ .

---

(١) ١/٢٨ ـ ٢٩ .

(٢) هو : إسحاق بن راهويه ، المار ذكره .

(٣) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١/٧٠ (دمشق) و ٥٧ (مصر) .

مجمل ما تقدّم أن النضر بن شميل كان من أصحاب الخليل بن أحمد المقربين ، خرج ، بعد وفاة الخليل ، من البصرة إلى خراسان مهاجراً . وهناك سمع بكتاب العين ونسبته إلى الخليل . فأنكره مؤكداً أنه خرج من البصرة بعد وفاة الخليل ، فإن كان للخليل كتاب فالأولى أن يكون لأصحابه وتلاميذه معرفة به . ويبدو أنه اطّلع على الكتاب فوجد فيه ما وجده الآخرون من اضطراب ونقص وتناقض ممّا دعاه إلى وضع كتابه (المدخل إلى كتاب العين) . ويبدو أيضاً أنّ هذا الكتاب لم ينل حظّاً من الشهرة والانتشار فبقي موقف النضر محيّراً ، ممّا أوقع الرواة ومؤلفي الكتب في مواقف متناقضة منه تجاه كتاب العين .

بعد منتصف القرن الثالث الهجري

بعد أن أوصل وراقٌ من خراسان إلى البصرة أولَ نسخة من (العين) ، صار الكتاب بعدها معروفاً متداولاً في البصرة وبغداد وغيرهما من حواضر العراق . فوقف بعض اللغويين موقفاً متشدداً من الكتاب فأنكروه وأنكروا نسبته إلى الخليل .

وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) على رأس البصريين المتشددين . يقول أبو علي القالي[1] : (أنكره ابو حاتم وأصحابه أشدّ الإنكار ودفعه بأبلغ الدفع ، وكيف لا ينكره أبو حاتم على أن يكون بريئاً من الخلل سليماً من الزلل) .

على أنّ بصرياً آخر من تلاميذ أبي حاتم ، هو أبو العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ) له رأي مخالف لرأي شيخه . فقد أثِر عنه أنه كان « يرفع من قدر كتاب العين »[2] ، على الرغم من عدم وجود أي أثر لهذا التقدير في كتب المبرد التي وصلت إلينا ، ولا في ما نقل عنه في كتب الآخرين .

---

(١) المزهر ٨٤/١ .

(٢) المصدر نفسه ٨٩/١ .

ما أراه أنّ المبرد اطّلع على كتاب العين قبل أن يصل هذا الكتاب إلى البصرة ، وذلك عن طريق بُنْدار بن لَرَّة الكرجيّ ، أحد رواة العين عن الليث بن المظفر . فقد استقدم الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) المبردَ إلى سرّ من رأى سنة ٢٤٦هـ[١] ، يقول المبرد[٢] : (كان سبب غناي بندار بن لرّة الأصبهاني ، وذلك أني حين فارقت البصرة وأصعدت إلى سامرا ، وردتها في أيام المتوكل ، فآخيت بها بندار بن لرّة وكان واحد زمانه في رواية دواوين شعر العرب ... وأصحّ الناس معرفة باللغة ....) .

فمن خلال هذه الرابطة العلمية تآخى المبرد وبندار ، فضلاً عن كون الأخير سبباً في غنى المبرد وشهرته في مجلس الخليفة . هذه الأخوّة قادت بنداراً إلى أن يعرض ما عنده من علم ، فكان كتاب العين في مقدمة ما أخذه المبرد عنه ، لا سيّما أن المبرد في أول سلّم الشهرة ورأيه في بندار أنه « أصحّ الناس معرفة باللغة » .

لذلك كان وصول كتاب العين إلى المبرد عن طريق رجل عرف بفضله وعلمه وكان بمثابة شيخ للمبرد . كان هذا الوصول سبباً في أن يرفع المبرد من قدر هذا الكتاب . لكنه حين اشتدّ الخلاف بين الدارسين في عصره حول العين اكتفى بالتقدير من غير أن ينقل عنه في كتبه .

على أنّ لأبي العباس ثعلب (ت ٢٩١هـ) ، معاصر المبرد ورأس المدرسة الكوفية في عصره ، رأياً واضحاً في تقويمه (العين) . كان هذا الرأي نتيجة قراءة متأنية للكتاب . فقد رفض (العين) وأنكره لما يأتي :

---

(١) مقدمة المحقق لكتاب (المقتضب) للمبرد ١٣/١ .

(٢) معجم الأدباء ١٣٠/٧ .

١ ـ كثرة الأغلاط فيه ، يقـول (وإنما وقع الغلط في كتاب العين لأنّ الخليـل رسمه ولم يَحْشُه ، ولو كان حشاه ما بَقَّى فيه شيئاً ، لأن الخليل رجل لم يُرَ مثله)[١] .

٢ ـ وعليه فإن الذي حشاه (قوم علماء ، إلاّ أنهم لم يؤخـذ عنهم رواية ، وإنما وجد بنقل الوراقين ، فاختلّ الكتاب لهذه الجهة)[٢] .

٣ ـ عدم روايتـه وزيادات الوراقين جعله يرى (في العين حروفاً كثيرة قد أزيلت عن صورها ومعانيها بالتصحيف والتغيير)[٣] .

رأي ثعلب هذا يمكن أن يعدّ الأساس الذي قام عليه إنكار أشدّ العلماء إنكاراً للكتاب ، وهما : الأزهري صاحب تهذيب اللغة وأبو بكر الزبيدي .

وقد كان لرأي ثعلب هذا ، فيما يبدو ، تأثير في تلميذه المفضّل بن سلمة الكوفيّ (ت بعد ٣٩٠هـ) ، الذي ألّف أول كتاب في نقد (العين) والاستدراك عليه وإخراج ما فيه من الغلط ، ذلك هو كتابه المعـروف بـ (البارع) . وقد اطّلـع أبو محمد بن الخشاب (ت ٥٦٧هـ) على نسخة من الكتاب ، قال (... قرأت أنا بخط المفضل في كتابه الذي سمّاه « البارع في الرد على كتاب العين .... »)[٤] . العنوان المذكور ، وكونه بخط المفضل ، يجعلنا لا نذهب مذهب بعض المترجمين للمفضل إلى أن له كتابين

---

(١) مراتب النحويين ٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ٣٠ ـ ٣١ .

(٣) معجم الأدباء ١٧/٤٤ .

(٤) معجم الأدباء ١٥/٧٠ .

علـى العين[1] . وقد أكّـد القفطي (ت ٦٤٦هـ) ما ذكـره ابن الخشّاب ، فقـال : (.. كتاب البارع للمفضل بن سلمة ، وهو كتاب كبير في عدة مجلدات ، هذّب به كتاب العين للخليل بن أحمد وأضاف إليه من اللغة ما أمكنه . وحصلت لي منه عدة مجلدات عليها خط يوسف بن أبي سعيد السيرافي رحمه الله)[2] . ويبقى من الصعب أن نوفق بين وصف القفطي الكتاب بأنه (كتاب كبير في عدة مجلدات) وبين قول المترجمين أنه (مات قبل إتمامه فلم يخرج منه غير الهمزة والهاء والعين والحاء والغين) .

وقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة ، كما يقول الدكتور حسين نصار[3] ، في أوساط البصريين والكوفيين . فقد كذّبه ابن دريد في شيء من مادته[4] ، كما أشار إليه أبو الطيّب اللغوي بقوله : (ردّ شيئاً كثيراً من كتاب العين أكثره غير مردود)[5] . وقرأ ابن الخشاب فيه (أشياء تدل على قصوره في الصناعة وضعفه في قياسها)[6] .

ويبدو لي أن المفضّل بنى ردّه على كتاب العين على افتراض أنّ الكتاب بمجمله ، خطته ومادته ، للخليل . لذلك فهو حينما يرد على أغلاط الكتاب فإنّما ينسبها إلى

---

(١) فقد ذهب ابن النديم (الفهرست ٨٠) والأنباري (نزهة الألباء ٢٠٢) وياقوت (معجم الأدباء ١٦٣/١٩) والصغاني (مقدمة العباب) والسيوطي (بغية الوعاة ٢٩٧/٢) إلى أن للمفضل كتابين هما :

أ ـ البارع في اللغة .

ب ـ الرد على الخليل وإصلاح ما في كتاب العين من الغلط والمحال والتصحيف .

(٢) أنباه الرواة ٦٢/٤ . وقد نقل قوله من غير إشارة : ابن خلكان في الوفيات ٧٣/٧ .

(٣) المعجم العربي ٣٠٣/١ .

(٤) معجم الأدباء ١٣٧/١٨ وأنباه الرواة ٣٠٦/٣ .

(٥) مراتب النحويين ١٥٤ .

(٦) معجم الأدباء ٧٠/١٥ .

الخليل لا إلى من أتمّ الكتاب بعده . وهذا ما أثار العلماء عليه . فقد حفظ لنا كتاب المفضل (الفاخر)[1] نصوصاً من العين ينقلها منسوبة إلى الخليل . يقول في أحدها[2] : (وقال الخليل بن أحمد [العين ١/١٥٠] : إنما سميت بيضة الديك بيضة العقر لأنه تمتحن بها الجارية فيعلم حالها في العقر . وهذا قول لا يعقل ولا أعلم أحداً قاله غيره) .

القرن الرابع الهجري

يتميز القرن الرابع الهجري بكثرة اللغويين الذين أدلوا بدلوهم في قضية كتاب العين ونسبته إلى الخليل بن أحمد ، كما يتميّز بعمق الدراسات التي تناولت مادته اللغوية وما قام حولها من خلاف .

لقد اخترنا عشرة من لغويي هذا القرن ودرسنا مواقفهم المتباينة من هذا الكتاب ، تاركين ذكر الآخرين منهم لأسباب ، منها : عدم وصول نقول عن هذه المواقف من خلال كتب التراجم أو كتبهم اللغوية ، ومنها : أنهم متابعون في آرائهم غيرهم ممّا لا يضيف جديداً إلى هذا الموضوع .

واللغويون العشرة هم ، حسب تسلسل وفياتهم : ابن دريد وابن درستويه وأبو علي القالي وأبو منصور الأزهريّ وأبو بكر الزُّبيديّ وأبو أحمد العسكريّ والصاحب بن عبّاد وابن جني وأحمد بن فارس والجوهريّ .

على أننا ، عند دراستنا مواقفهم من (العين) ، سنتناولهم من خلال هذه المواقف وكونها تنتصر لنسبة الكتاب إلى الخليل أو تنكر هذه النسبة ، فضلاً عن المواقف الأخرى التي بينهما .

---

(١) الصفحات : ١٨٨ و ٢٧٨ و ٢٩٥ .

(٢) ص ١٨٨ .

وابن درستويه (ت ٣٤٧هـ) كان ثاني اثنين[١] من أشدّ المدافعين عن كتاب العين ونسبته إلى الخليل . فقد أخذ العين روايةً ، كما مرّ بنا ، عن عليّ بن مهدي الكسروي . وهذه الرواية ، فيما أرجح ، كانت في فارس وفي أصبهان بالذات ، بلد الكسروي . إذ إن ابن درستويه رحل عن فارس إلى بغداد ، كما يرجح الدكتور عبدالله الجبوري[٢] ، بعد سنة ٢٨٣هـ .

وحينما وصل إلى بغداد واتخذها داراً له ، كان (المبرد من أقوى الشخصيات التي أثرت في نشأته اللغوية ، ودرسه عليه كان من أهم مصادر ثقافته في العربية)[٣] ، على الرغم من قصر المدة التي درس فيها عليه[٤] .

ولا شك في أنّ كتاب المفضل بن سلمة الكوفي (البارع في الرد على كتاب العين) وما فيه من قصور في الصناعة وضعف في القياس[٥] هو الذي دفع ابن درستويه إلى هذا الموقف ، فألف كتابين هما :

١ ـ رد على المفضل في الرد على الخليل[٦] .

٢ ـ الانتصار لكتاب العين وأنّه للخليل[٧] .

---

(١) الآخر هو نفطويه (ت ٣٢٣هـ) الذي له كتاب بعنوان (الرد على المفضل في نقضه على الخليل) ، انظر : الفهرست ٩٠ ومعجم الأدباء ٢٧٢/١ وأنباه الرواة ١٨٠/١ .

(٢) ابن درستويه ، لعبدالله الجبوري ص ١٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٤ .

(٤) وهي سنتان ، إذ توفي المبرد سنة ٢٨٥هـ .

(٥) معجم الأدباء ٧٠/١٥ .

(٦) أنباه الرواة ١١٣/٢ .

(٧) المصدر نفسه ١١٤/٢ .

وعنوان الكتاب الثاني يدل دلالة واضحة على موقف ابن درستويه الداعي إلى نسبة (العين) إلى الخليل منتصراً له في مادته . وقد وصفه القفطي[1] بقوله : (وأما كتاب العين فقد اختلف الأئمة فيه ، فمنهم من ينسبه إليه ومنهم من يحيل نسبته إلى الخليل . وقد استوفى ابن درستويه الكلام في ذلك في كتاب له مفرد لهذا النوع ، ملكته بخط تيزون الطبري ، وهو تصنيف مفيد) .

على أنّ هناك نصاً ، سبق أن ذكرناه ، ينقله ابن النديم[2] عن ابن درستويه عن علي بن مهدي الكسروي عن أحمد بن منصور الزاج عن الليث يقول فيه (كنت أصير إلى الخليل بن أحمد فقال لي يوماً : لو أنّ إنساناً قصد وألّف حروف أ ب ت ث على ما أمثّله ... إلخ) ، قلنا في ما تقدّم من الصفحات : إنّ هذا الخبر صورة صادقة للواقع الذي قام عليه تأليف (العين) . فالكتاب من خلال الخبر كان فكرة طرأت على بال الخليل .. أي أن خطة الكتاب ومنهجه وفكرة ترتيبه قد أنجزها الخليل ... أعقبه الليث بحشو الكتاب بالمادة اللغوية . فالخبر صريح في إلقاء الخليل تبعة إكمال الكتاب على الليث ، والليث صريح في قوله : إلى أن عملت الكتاب .

هذا الخبر الذي رواه ابن درستويه يتناقض مع موقفه وعنوان كتابه الذي يشير إلى نسبة العين إلى الخليل . وليس لدينا من نصوص كتابه (الانتصار ..) ما يساعد على حلّ هذا التناقض .

على أننا من جهة أخرى نجد علماء آخرين وقفوا مواقف شديدة من هذا الكتاب ونسبته إلى الخليل ، تتمثل في أبي منصور الأزهري وأبي بكر الزبيدي وابن جني وأستاذه أبي علي الفارسي . فهم جميعاً ، باستثناء الفارسي ، أنكروا نسبة مادة الكتاب اللغوية إلى الخليل .

---

(١) المصدر نفسه ٣٤٣/١ .

(٢) الفهرست ٤٨ ، وعنه في معجم الأدباء ٥١/١٧ .

والأزهري (ت ٣٧٠هـ) من العلماء الذين وصلت إلينا كتاباتهم عن (العين) عبر كتابه (تهذيب اللغة) ، الذي بناه على منهج الخليل ورسمه . لقد تتبع الأزهري كتاب العين فاقتنى أكثر من نسخة[١] وقابل بينها وبين كتب اللغويين الثقات ، فوصل إلى استنتاج هو : أنّ حشو الكتاب ليس للخليل ، بل له الرسم والفكرة والتخطيط والتأسيس . أما المادة اللغوية ففيها الغث والسمين ، والصحيح والسقيم ، والتناقض والاضطراب ، والخلط والتصحيف والتحريف . وهذا ـ في رأيه ـ مما لا يمكن أن ينسب إلى الخليل .

ذكر الأزهري (العين) في مقدمة التهذيب مرتين ، الأولى[٢] حين ذكر الليث بن المظفر في طبقة الذين « اتّسموا بسمة المعرفة وعلم اللغة وألفوا كتباً أودعوها الصحيح والسقيم وحشوها بالمزال والمفسد والمصحّف المغيّر الذي لا يتميّز ما يصحّ منه إلاّ عند النقّاب المبرّز والعالم الفطن ، لنحذّر الأغمار اعتماد ما دوّنوا والاستنامة إلى ما ألّفوا » . ثم قال : « فمن المتقدمين الليث بن المظفّر الذي نحل الخليل بن أحمد تأليف كتاب العين جملة لينفّقه باسمه ، ويرغّب فيه من حوله » . ثم ينقل روايات يؤيد بها قوله ، يقول بعدها : « قلت : وقد قرأت كتاب العين غير مرّة ، وتصفّحته تارة بعد تارة ، وعنيت بتتبّع ما صحّف وغيّر منه ، فأخرجته في مواقعه من الكتاب وأخبرت بوجه الصحّة فيه ، وبيّنت وجه الخطأ ، ودللت على موضع الصواب منه . وستقف على هذه الحروف إذا تأمّلتها في تضاعيف أبواب الكتاب وتحمد الله إذا أنصفت على ما أفيدك فيها ، والله الموفّق للصواب ولا قوة إلا به .

---

(١) تهذيب اللغة ٣/٢٦٤ و ٤/٤١٤ و ٦/٢٧١ و ١١/٢٧٦ .
(٢) ١/٢٨ - ٢٩ .

وأمّا ما وجدته فيه صحيحاً ، ولغير الليث من الثقات محفوظاً أو من فصحاء العرب مسموعاً ، ومن الريبة والشكّ لشهرته وقلة إشكاله بعيداً ، فإنّي أعزيه إلى الليث بن المظفّر وأؤدّيه بلفظه ، ولعلي قد حفظته لغيره في عدّة كتب فلم أشتغل بالفحص عنه لمعرفتي بصحّته ، فلا تشكّن فيه من أجل أنّه زلّ في حروف معدودة هي قليلة في جنب الكثير الذي جاء به صحيحاً . واحمدني على نفي الشبه عنك فيما صححته له ، كما تحمدني على التنبيه فيما وقع في كتابه من جهته أو من جهة غيره ممن زاد ما ليس منه . ومتى ما رأيتني ذكرت من كتابه حرفاً وقلت : إنّي لم أجده لغيره فاعلم أنه مريب ، وكن منه على حذر وافحص عنه ، فإن وجدته لإمام من الثقات الذين ذكرتهم في الطبقات فقد زالت الشبه ، وإلاّ وقفت فيه إلى أن يصح أمره » .

والمرة الثانية التي ذكر الأزهري فيها كتاب العين ، هي حين أراد الابتداء بذكر الحروف وإيضاح منهجه الذي سار عليه في كتابه . قال[1] : « ولم أر خلافاً بين اللغويين أن التأسيس المجمل في أول كتاب العين لأبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد ، وأن ابن المظفّر أكمل الكتاب عليه بعد تلقّفه إيّاه من فيه ... » ، وهنا ينسى الأزهري ما قاله من قبل ويرى (أن ابن المظفر أكمل الكتاب على الخليل بعد تلقفه إيّاه من فيه ...) ، لكنّ الأزهري في ثنايا كتابه لا يذهب إلاّ إلى ما قاله في المرّة الأولى ، فيسمّي مؤلف العين الليث ، ولا يذكر الخليل إلاّ فيما يتعلق بالأصوات ومخارجها ، إذ يرى أن مقدمة العين وما فيها من مادة صوتية هي للخليل بن أحمد .

---

(١) ١/٤١ .

ومنهجه في ما ينقل عن العين يتلخص بما يلي :

١ ـ أن يشير إلى المـادة التي ينقلها ، إن لـم يجدها في كتب اللغويين الثقات ، بقول متردد لا يقطع برأي فيه ، كقوله (ولم أسمعه لغيره)[١] ، أو (لم أسمع لغير الليث وأرجو أن يكون أخذه من الثقات)[٢] ، أو (لا أحفظه لغيره وأرجو أن يكون صحيحاً)[٣] ، أو (فإني لا أحفظها لغير الليث ، ولا أدري أهي لغة حفظت عن العرب أم العين تصحيف والله أعلم)[٤] ، أو (هذا حرف مريب ولا أحقّه)[٥] .

٢ ـ أن يقطع برأي في المـادة التي ينقلها ولا يتردد بأن يصفها بالخطـأ . وعباراته في هذا الأمر تزداد حدّة كلما كان الخطأ فاحشاً ، كقوله (قلت أنا : جميع ما قاله الليث في الوعيق والخفيق خطأ ، لأن الوعيق ..)[٦] ، أو (قلت : وهذا غلط بل تصحيف منكر)[٧] ، أو (وقال الليث : الحنّة خرقة تلبسها المرأة فتغطي رأسها ، قلت : هذا حاق التصحيف الوحش)[٨] ، أو (قلت هذا التفسير من أباطيل الليث)[٩] ، أو (قلت : وهذا حاق التصحيف الذي يستحي من مثله من ضعفت معرفته فكيف الذي يدعي المعرفة الثاقبة)[١٠] .

---

(١) ١٢٢/١ .
(٢) ٣٣٩/١٠ .
(٣) ٢٠٧/٧ و ٦٢٩ .
(٤) ١٢٤/١ .
(٥) ١٤٧/١ .
(٦) ٣١/٣ .
(٧) ١١٥/٣ .
(٨) ٤٤٨/٣ .
(٩) ٥٠/٩ .
(١٠) ٤٦٤/١٠ .

٣ ـ وأحياناً نراه يذهب إلى أن مثل هذه الأخطاء ليست من الكتاب وإنما زيدت عليه ونقلت من صحف سقيمة ، كقوله (قلت : وهذه الحروف وما شاكلها أراها منقولة من صحف سقيمة إلى كتاب الليث وزيدت فيه . ومن نقلها لم يعرف العربية فصحّف وغيّر فأكثر ، والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل)[١] ، أو (وهذا تصحيف قبيح من الليث أو ممن زاده في كتابه)[٢] .

٤ ـ وكثيراً ما نراه يستحسن ما ينقله عن الليث ويظهر إعجابه ويقدّمه على غيره من اللغويين الثقات ، كقوله (قلت : وقول الليث في المعرّص أعجب إليّ من قول الفرّاء)[٣] ، أو (قلت : فرّق الليث بين الحزيم والحيزوم ، ولم أر لغيره هذا الفرق ، وقد استحسنته له)[٤] ، أو (قلت : جوّد ابن المظفر في تفسير الوحشيّ والإنسيّ ، ووافق قوله قول أئمتنا المتقنين)[٥] ، أو (قلت : وهذا صحيح من قول الخليل ، وهو كما حكاه عنه الليث)[٦] ، أو (وهذه الحروف ذكرها الليث في كتابه وكلها صحيحة)[٧] .

---

(١) ١٥١/٧ .

(٢) ١٨٥/١٤ .

(٣) ٢١/٢ .

(٤) ٣٧٦/٤ .

(٥) ١٤٤/٥ .

(٦) ٤٣٦/٣ .

(٧) ١٩٠/١٣ .

العالم الآخر الذي وقف موقفاً متشدداً من العين هو أبو بكـر الزبيـدي الأندلسي (ت ٣٧٩هـ) ، الذي تمثلت عنايته بالكتاب في تتبع نسخه والتصدّي لدرسه ونقده . وقد أثمرت هذه العناية كتابين ، هما :

١ ـ مختصر العين ، وقد طبع جزء منه[١] .

٢ ـ استدراك الغلط الواقع في كتاب العين ، وهو مفقود[٢] .

ذهب الزبيدي في كتابه الأول إلى اختصار العين (بأن تؤخذ عيونه ويلخص لفظه ويحذف حشوه وتسقط فضول الكلام المتكررة فيه ، لتقرب بذلك فائدته وليسهل حفظه ويخفّ على الطالب جمعه ... ومذهبنا أن نصلح ما ألفيناه مختلاً في الكتاب وأن نوقع كلّ شيء منه مواقعه ونضعه في بابه إن شاء الله . ونحن نربأ بالخليل عن نسبة هذا الخلل إليه ... بل نقول : إنّ الكتاب لا يصحّ له ولا يثبت عنه ... وأكبر الظن أن الخليل سبّب أصله ورام تثقيف كلام العرب فيه ثم هلك عنه قبل كماله فتعاطى إتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه[٣] .

أما كتابه الثاني المفقود (استدراك الغلط ..) فقد انفرد السيوطي[٤] بذكر مقدمته وتلخيص أهم الاعتراضات والاستدراكات التي وجهها الزبيدي إلـى العـين .

---

(١) في المغرب سنة ١٩٦٣ ، بتحقيق : علال الفاسي ومحمد بن تاويت الطنجي . وطبع مؤخراً في بغداد (١٩٩١م) الجزء الأول بتحقيق : د. صلاح مهدي الفرطوسي .

(٢) عثر الأستاذ عبدالعلي الودغيري على قطع ثلاث من هذا الكتاب ، بضمنها مقدمته . وقد حقق هذه المقدمة ونشرها في كتابه (المعجم العربي في الأندلس) ، الرباط ـ مكتبة المعارف ـ ١٩٨٤ ، ص ١٢٥ ـ ١٤٦ .

(٣) مختصر العين ، ص ٧ ـ ٨ .

(٤) المزهر ٧٩/١ وما بعدها .

وهو في مقدمته هذه يرد على من ذهب إلى أن نقده كتاب العين إنما هو نقد وردّ على الخليل . يقول (أو ليس من العجب والنادر الغريب أن يتوهم علينا من به مسكة من نظر أو رمق من فهم تخطئة الخليل في شيء من نظره والاعتراض عليه فيما دقّ أو جلّ من مذهبه ، والخليل بن أحمد أوحد العصر وقريع الدهر ... ولو أن الطاعن علينا يتصفّح صدر كتابنا « المختصر من كتاب العين » لعلم أنّا نزهنا الخليل عن نسبة المحال إليه ونفينا عنه من القول مالا يليق ...)[1] .

ثمّ أخذ الزبيدي بعد ذلك يبين أدلة رفضه نسبة الكتاب إلى الخليل ، وهي :

١ ـ إنكار أصحاب الخليل الكتاب وعدم روايته . يقول : (إن الكتاب لا يصحّ له ولا يثبت عنه ، فقد كان جلّة البصريين الذين أخذوا عن أصحابه وحملوا علمه عن رواته ينكرون هذا الكتاب ويدفعونه ، إذ لم يرد إلاّ عن رجل واحد غير مشهور في أصحابه)[2] .

٢ ـ ما وقع فيه من الحكايات عن المتأخرين ، والاستشهاد بالمرذول من أشعار المحدثين[3] . ويضرب الزبيدي مثلاً على ذلك ما في نسختي القاضي منذر بن سعيد البلوطي وقاسم بن ثابت من النقل عن أبي عبيد القاسم بن سلام وابن الأعرابي والأصمعي وغيرهم .

٣ ـ ويذهب إلى (أنّ جميع ما فيه من معاني النحو إنما هو على مذهب الكوفيين)[4] ، وضرب مثلاً على ذلك مخارج الحروف واختلافها عمّا ذكره سيبويه عن الخليل في الكتاب ، وإدخاله الرباعي المضاعف في باب الثلاثي المضاعف .

---

(١) المصدر نفسه ١/٨٠ و ٨٣ .

(٢) مختصر العين ٨ .

(٣) المزهر ١/٨٣ .

(٤) المصدر نفسه ١/٨٥ .

٤ ـ وفضلاً عمّا تقدم فالزبيدي يرى (لو أن الكتاب للخليل لما أعجزه ولا أشكل عليه تثقيف الثنائي الخفيف من الصحيح والمعتل ، والثنائي المضاعف من المعتل ، والثلاثي المعتلّ بعلتين ، ولما جعل ذلك كلّه في باب سمّاه اللفيف فأدخل بعضه في بعض وخلط فيه خلطاً ...)[1] .

من خلال ما تقدّم ، نتبيّن أن أبا بكر الزبيدي يذهب مذهب الأزهري ـ وإن كان لا يبدو أنه مطلع على كتابه تهذيب اللغة ـ ، وهو أن الخليل (سبّب أصل كتاب العين ورام تثقيف كلام العرب فيه) ، أي أنّ خطة الكتاب ومنهجه وترتيبه كانت من وضع الخليل وفكره ، (ثم هلك عنه قبل كماله فتعاطى إتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه ، فكان ذلك سبب الخلل الواقع به والخطأ الموجود فيه) .

أمّا ابن جنّي (ت ٣٩٢هـ) فله في كتاب العين رأي قاطع تميّز به لم يعوّل فيه على غيره ولم يستعر مفردات العلماء السابقين أو المعاصرين في وصفه ، وإنما جاء هذا الوصف والتقويم عن اطّلاع ومتابعة واستقراء لآراء المتقدمين في هذا الكتاب . قال (وأمّا كتاب العين ففيه من التخليط والخلل والفساد ما لا يجوز أن يحمل على أصغر أتباع الخليل ، فضلاً عن نفسه ، ولا محالة أن هذا تخليط لحق هذا الكتاب من قبل غيره رحمه الله . وإن كان للخليل فيه عمل فإنما هو أنه أومأ إلى عمل هذا الكتاب إيماء ، ولم يله بنفسه ، ولا قرره ، ولا حرره . ويدل على أنه قد نحا نحوه أني أجد فيه معاني غامضة ونزوات للفكر لطيفة ، وصنعة في بعض الأحوال مستحكمة)[2] .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) الخصائص ٣/٢٨٨ .

من الواضح أن ابن جني ينكر في مطلع كلامه عن الكتاب مادته وما فيها من اضطراب وفساد ، لكنه لا يجرّد الخليل من فضيلة ما في الكتاب وهو خطته ومنهجه وترتيبه .

وقد أشار في أثناء عرض رأيه إلى رأي شيخه أبي علي الفارسي فكان إنكاره أشدّ ، اذ يفهم منه رفضه الكتاب عن الخليل مادة ومنهجاً . وقد رأينا آثار هذا الإنكار في بعض كتب أبي علي . فقد ذكر في كتابه (المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات)[1] قوله (ذكر سيبويه قولهم : مرعزاء ، وحكم بزيادة الميم منها ، وذكر صاحب العين فيه قولاً خالف قول سيبويه فيه . ونحن نذكر ما قال ونبين فساده) . وهذا يعني أن من بين أسباب رفض أبي علي الفارسي كتاب العين اختلاف ما فيه عمّا نقل سيبويه في كتابه الذي يمثل علم الخليل وفكره .

وعلى الرغم من أنّ أبا أحمد العسكري (ت ٣٨٢هـ) ذهب مذهب المنكرين للكتاب الرافضين له ، فإنّ في ما كتبه تخليطاً يجعلنا لا نضعه في صفّ الأزهري والزبيدي وابن جني .

يقول العسكري في باب : ما روي من أوهام علماء البصريين ، من كتابه (شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف)[2] : « ما وهم فيه الخليل بن أحمد في كتاب العين إن كان عمله . فإني رأيت مشايخنا كالمجمعين على أن الخليل إنما عمل بعض الكتاب ، وقيل بل عمل حرف العين فقط ، وأن النضر بن شميل تمّمه بخراسان ، واجتمع معه الليث بن المظفر وعلي بن ساسان الواسطي ، فأضافوا إلى الكتاب ما يجوز وجملاً مما لا يجوز رغبة في أن يكون الكتاب كاملاً تامّاً » .

---

(١) ص ٩٩ .

(٢) ١/٧٠ (دمشق) و ٥٧ (مصر) .

على الرغم من أن في قول أبي أحمد العسكري المذكور أعلاه تشكيكاً واضحاً في نسبة (العين) إلى الخليل ، فإن الدارس يشعر أنه ينقل عن غيره ، وأن نقله فيه خلط لا نراه عند المتقدمين . فهو يجعل النضر بن شميل متمّماً للعين ، يساعده في عمله الليث بن المظفر وعلي بن ساسان الواسطي ، والأخير مجهول لا وجود له في كتب الرجال .

ويكمل العسكـــري كلامه بإيراد أدلّته على أن غير الخليل تمّم الكتاب فيقـول : « ومما يدل على هذا استشهادهم بأشعار المولّدين مما لم يكن الخليل يلتفت إليه ولا يستشهد بمثله . وقد علّمت في (العين والحاء والراء) وغيرها على أكثر من أربعين بيتاً للمحدثين مثل سليمان بن يزيد العدوي وصالح بن عبد القدوس وسابق وبشار ومن في طبقتهم ، بل وجدت فيه من شعر أبي دلامة والحسن بن هاني ، وهذا أدلّ دليل على أنّ الكتاب مفسد مزيد عليه »[1] .

ثم يروي عن أبي عمر الزاهد خبراً يرويه عن أبي الحسين النيسابوري عن أبيه عن إسحاق بن راهويه عن النضر بن شميل في الليث بن المظفر . وقد سبق ، عند الحديث عن النضر أن استبعدنا هذا الخبر وبيّنا أن اسم النضر مقحم فيه .

ثمّ يعدد بعد ذلك التصحيفات والتحريفات التي وقعت في كتاب العين ، ومعظمها قد قرأها على ابن دريد . ونراه يذكر في إشاراته هذه أنها (ممّا لا يذهب مثله على الخليـــل)[2] ، أو قول ابن دريد له (لا تنظر إلـــى ما في كتاب الخليـــل في باب السين ... فإن ذلك غلط من الليث على الخليل)[3] ، وكأنه بهذا ينبّه القارئ إلى أن هذه التصحيفات ليست من الخليل وإنما هي ممّن تمّم الكتاب بعده .

---

(١) المصدر نفسه ١/٧٠ - ٧١ (دمشق) و ٥٨ (مصر) .
(٢) المصدر نفسه ١/٧٣ (دمشق) و ٥٩ (مصر) .
(٣) المصدر نفسه ١/٧٥ - ٧٦ .

أمّا ابن دريد والقالي وابن فارس ، وهم ممن ألف في المعجمات ، فعلى الرغم من شكّهم في مادة الكتاب فإنهم لم ينظروا إلى قضية نسبته إلى الخليل نظرة جادة ، بل كانوا ينسبونه إلى الخليل لكنهم في ثنايا ردودهم واستدراكاتهم على العين كانوا يميلون إلى نفي الخطأ عن الخليل ، وبعضهم كان يذكر صراحة الليث وكونه سبب هذا الخطأ .

عرف ابن دريد (ت ٣٢١هـ) ، وهو بصري وأزديّ كالخليل ، بأمر كتاب العين ، وربما اطّلع عليه ، سنة ٢٤٨هـ ، وهو في ريعان شبابه . إذ كان عمره خمساً وعشرين سنة[١] . وبعد ما يقرب من نصف قرن أملى كتابه الجمهرة ، الذي لا يخفى على الدارسين تأثره بكتاب العين مادة ومنهجاً .

أثنى ابن دريد في مقدمة الجمهرة على الخليل وكتابه ثناء يبدو أنه كان نتيجة إعجابه بمنهج الكتاب وما فيه من ذكاء وفطنة . يقول[٢] : (وقد ألّف أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفرهودي رضوان الله عليه كتاب العين فأتعب من تصدّى لغايته وعنّى من سما إلى نهايته . فالمنصف له بالغلب معترف والمعاند متكلّف وكلّ من بعده له تبع أقرّ بذلك أم جحد . ولكنه ، رحمه الله ، ألّف كتاباً مشاكلاً لثقوب فهمه وذكاء فطنته وحدة أذهان أهل دهره) .

هذا الثناء والإعجاب موجه ، كما قلنا ، إلى منهج الكتاب وما فيه من ذكاء وفطنة . أما مادة الكتاب وما فيها من تصحيف وتحريف واضطراب وما أصاب بعض جوانب المنهج من خلل فيعزوه ابن دريد إلى الليث صراحة . وهذا دفعه إلى أن يكتب

---

(١) ولد ابن دريد سنة ٢٢٣هـ .

(٢) الجمهرة ٣/١ .

مستدركاً على العين وما فيه من خطأ وتصحيف[1] . وقد نقل أبو أحمد العسكري[2] وحمزة الأصبهاني[3] نتفاً من هذه الاستدراكات عن ابن دريد ، وفيها يشير إلى إلقاء تبعة هذه الأغلاط على الليث . كقوله لأبي أحمد العسكري[4] (لا تنظر إلى ما في كتاب الخليل في باب السين غير المعجمة ، فقال : سدف في معنى شدف ، فإن ذلك غلط من الليث على الخليل) . وقوله في مادة / ز ح ك من الجمهرة[5] (الزحك : الدنو ... وأهمل الخليل هذه الكلمة ، وأحسبه غلطاً من الليث) . وقال في مادة / ب ع ث[6] (ويوم بعاث يوم معروف ، وذكر عن الخليل بالغين معجمة ، ولم يسمع من غيره . قال أبو بكر : وليس هذا صحيحاً عن الخليل أيضاً) . وقوله في مادة / د ق ش[7] (وزعموا أن الخليل سأل أبا الدقيش : ما الدقيش ؟ فقال : لا أدري ، إنما هي أسماء نسمعها ، نسمّى بها ولا نعرف معانيها . وهذا غلط وادّعاء على أبي الدقيش ، وكيف يخفى على أبي عبدالرحمن نضّر الله وجهه مثل هذا وقد سمع العرب سمّت دقشاً ودقيشاً ...) .

مجمل ما تقدّم ، أن ابن دريد بقي في حيرة من أمر كتاب (العين) ونسبته إلى الخليل . ففي مقدمة الجمهرة ينسبه صراحة إلى الخليل ويثني عليه ثناء لا حدّ له ، لكنه في ثنايا الكتاب يشير إلى أغلاط فيه سرعان ما ينسبها إلى الليث . وكأنه بهذا يلقي

---

(١) الفهرست ٤٩ .

(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ٧٣/١ - ٨١ (دمشق) و ٦٠ - ٦٨ (مصر) .

(٣) التنبيه على حدوث التصحيف ٧٥ .

(٤) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ٧٥ - ٧٦ (دمشق) و ٦٢ (مصر) .

(٥) الجمهرة ١٤٩/٢ .

(٦) المصدر نفسه ٢٠١/١ .

(٧) المصدر نفسه ٢٦٩/٢ .

تبعة ما في الكتاب من اضطراب على الليث لأنه وحده حمل الكتاب عن الخليل ، وهو الذي انفرد بروايته . ويبدو أن ابن دريد وضع يده على الشيء الكثير من هذا الاضطراب مما دفعه إلى وضع مستدرك على كتاب العين .

أما أبو علي القالي (ت ٣٥٦هـ) فلدينا موقفان له من كتاب العين ، أولهما ينقله عنه تلميذه المقرّب إليه أبو بكر الزبيدي في أول كتابه « استدراك الغلط الواقع في كتاب العين » نقلاً عن كتاب المزهر للسيوطي[١] . يقول الزبيدي : (وحدثنا إسماعيل بن القاسم البغدادي ، وهو أبو علي القالي ، قال : لمّا ورد كتاب العين من بلد خراسان زمن أبي حاتم ، أنكره أبو حاتم وأصحابه أشدّ الإنكار ودفعه بأبلغ الدفع ، وكيف لا ينكره أبو حاتم على أن يكون بريئاً من الخلل سليماً من الزلل ، وقد غبر أصحاب الخليل بعد [وفاته][٢] مدة طويلة لا يعرفون هذا الكتاب ولا يسمعون به ... فما علمنا أحداً منهم نقل في كتابه عن الخليل من اللغة حرفاً) ، وهو موقف يتضح فيه التشكيك في نسبة الكتاب إلى الخليل .

أما الموقف الثاني فنجده في ثنايا كتابه (البارع) ، اذ نستشفّ منه اعترافاً صريحاً بنسبة (العين) إلى الخليل . هذا الموقف جاء - ربما - تالياً لموقفه السابق وبعد طلب من الخليفة الأموي في الأندلس بمقابلة نسخ كتاب العين وتهيئة نسخة يعتمد عليها[٣] ، إذ « أنه بعد المقابلة التي أجراها اقتنع بصحّة نسبة الكتاب ... وصرّح بنسبته للخليل ولم ينسبه لليث ... »[٤] .

---

(١) ١/٨٣ - ٨٥ .

(٢) زيادة لتوضيح السياق .

(٣) مقدمة المحقق لكتاب (البارع) ص ٦٥ .

(٤) المصدر السابق .

ومع هذا الاقتناع يبقى الشكّ في نفس القالي تجاه ما ينفرد به العين من مواد لغوية . ففي مادة / ض م غ[1] : (وقال أبو علي : لست من هذا الحرف على ثقة ، فإنّي لم أجده إلاّ في كتاب العين) . وهذا الشك ربما كان مبعثه عدم حمل القالي كتاب العين رواية . فقد ذكر ابن خير الإشبيلي الكتب التي حملها القالي معه من المشرق ولم يكن كتاب العين من جملتها .

وأحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) من اللغويين الذين أفادوا من كتاب العين في مؤلفاتهم ، على الرغم من شكّه في مادته اللغوية . يقول في كتابه الصاحبي[2] : (وأمّا الكتاب المنسوب إلى الخليل وما في خاتمته من قوله : هذا آخر كلام العرب ، فقد كان الخليل أورع وأتقى لله ـ جلّ ثناؤه ـ من أن يقول ذلك) . ثم ينقل عن العلماء المعاصرين للخليل روايات في عمله وزهده ويختمها بقوله (قلنا : فهذا مكان الخليل من الدين ، أفتراه يَقْدِم على أن يقول : هذا آخر كلام العرب ؟ ثم إن في الكتاب الموسوم به من الإخلال ما لا خفاء به على علماء اللغة . ومن نظر في سائر الأصناف الصحيحة علم صحة ما قلناه)[3] .

لقد أفاد ابن فارس من (العين) في معجميه : مجمل اللغة ومقاييس اللغة ، لكنه يسمّي (العين) في كتابه الأول : الكتاب المنسوب إلى الخليل[4] ، أو : الكتاب الذي يقال إنه للخليل[5] .

---

(١) المصدر السابق ٢٧٠ .

(٢) ص ٤٧ .

(٣) المصدر السابق ٤٨ .

(٤) مجمل اللغة ١/١٤٥ (م / أثّ و أ جّ) و ١ / ٣٣٩ (م / توف) .

(٥) المصدر نفسه ١ / ٣٣٦ (م / تله) .

ويتميز ابن فارس عن غيره من اللغويين الذين أشرنا إليهم بروايته (العين) بسند يصل إلى الليث بن المظفر . هذا السند له أربعة طرق هي :

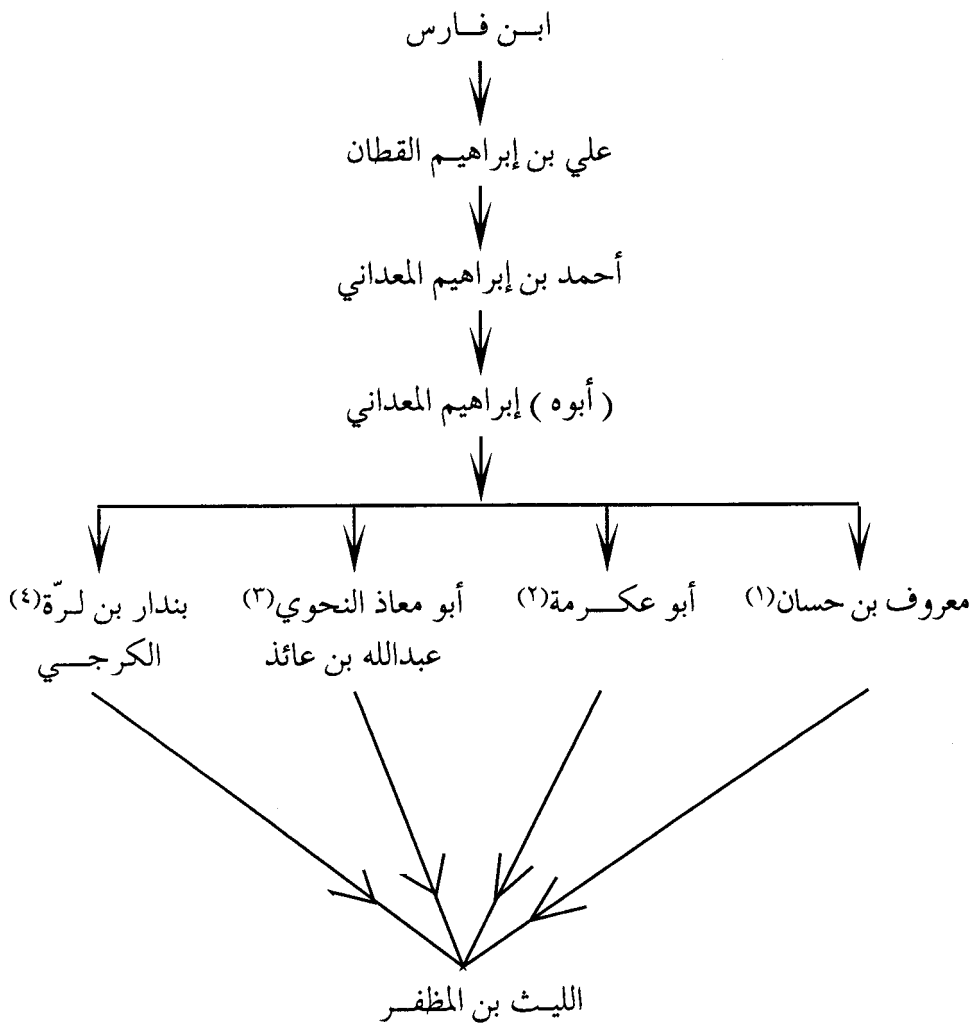

(١) مجمل اللغة ٥٧٢/٤ ومقاييس اللغة ٤/١ .
(٢) مجمل اللغة ٢٥/٢ .
(٣) مجمل اللغة ٥٧٢/٤ وحلية الفقهاء ٧٢ .
(٤) الصاحبي ٦٢ و ١٩٣ ومقاييس اللغة ٤/١ وحلية الفقهاء ٢١ و ١٣١ .

هؤلاء الرواة ، عدا بندار بن لرّة الكرجي ، مجهولون لا نعرف عنهم شيئاً . ولعل ضعف السند في رواية الكتاب هو الذي دفعه إلى التشكيك في نسبته إلى الخليل كما أشرنا . وقد لاحظ بعض الاضطراب في نسخته من العين ، قال : « وفي نسختي من كتاب العين أن الشين والجيم والذال مهمل ، فلا أدري أسقط من كتابي أم خفي على مؤلفه ، والكلمة صحيحة لا شكّ فيها »[1] .

بقي من علماء القرن الرابع ، الذين أشرنا إليهم ، عالمان هما : الصاحب بن عبّاد والجوهري .

أمّا الصاحب بن عبّاد (ت ٣٨٥هـ) فقد أكثر في كتابه (المحيط في اللغة)[2] النقل عن الخليل ، من غير أن يشير إلى العين ، كما أكثر استدراك المواد اللغوية التي أهملها كتاب العين .

أما النقل عن العين ، فلا بد أن يكون قد اطّلع عليه بعد أن شاع الكتاب وعرف في عصره ، القرن الرابع ، بخاصة أن أحد شيوخه ـ وهو ابن فارس ـ قد نصّ على روايته الكتاب في معظم كتبه اللغوية .

أما استدراك المواد اللغوية الجديدة فكان معتمداً فيها كتاب الخارزنجي (ت ٣٤٨هـ) : تكملة كتاب العين[3] ، وهو كتاب حاول مؤلفه استدراك ما أهمل في كتاب العين من مواد لغوية بالنقل عن كتب المتقدمين من علماء اللغة . وقد حمل الأزهري صاحب التهذيب على الخارزنجي ومؤلفه لأنه أسند مادته اللغوية إلى العلماء المتقدمين من غير سماع .

---

(١) مجمل اللغة ١٩٨/٣ (م / ش ج ذ) .

(٢) نشر منه ثلاثة أجزاء ، بتحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين (منشورات وزارة الثقافة والإعلام) بغداد ١٩٧١ و ١٩٧٥ و ١٩٨١ .

(٣) انظر : مقدمة المحقق لكتاب (المحيط في اللغة) ٢٠/١ وما بعدها .

وعلى الرغم من أنّ ما نشر من كتاب (المحيط) أقل من ثلثه فإننا نستطيع أن نشير إلى ما يلي :

١ ـ الكتاب بني على منهج الخليل في اعتماده مخارج الأصوات في توزيع المواد اللغوية .

٢ ـ نسب أكثر ما نقل من العين إلى الخليل ، ولم يذكر الليث إلاّ في مرات معدودة[١] . وهذا النقل ربما اعتمد فيه على غيره ممن ينسب نقوله إلى الليث .

٣ ـ لا يبدو أن للصاحب موقفاً واضحاً من كتاب العين ومؤلفه ، فهو لا يشير إلى خطأ ما ينقل أو صوابه مقارنة مع النقول الأخرى . يقول مثلاً : (العشم : الطمع ، عن أبي سعيد ، وحكاه الخليل بالسين غير معجمة)[٢] ، من غير إشارة إلى صحة أحدهما أو خطئه .

أمّا أبو نصر الجوهري (ت ٣٩٦هـ) فقد رحل إلى العراق في نحو منتصف القرن الرابع الهجري ، وكان كتاب العين قد شاع وعرف قبل ذلك بقرن . وكان لا بد لمن يريد تأليف معجم في اللغة أن يطّلع على جهود من سبقه من اللغويين ، وكان كتاب العين واحداً منها . لكنه لم يبد في أثناء نقله ما يشير إلى شكه في نسبة الكتاب ، فهو يشير إلى الخليل باعتباره مؤلفه ولا يشير إلى الليث أبداً . لكن الشك في مادته اللغوية يبدو واضحاً من خلال نقوله ونصوصه . ففي مادة (ش د ف) نجده يقول : (الشدف ، بالتحريك ، الشخص ، والجمع : الشدوف . وهذا الحرف في كتاب العين بالسين غير معجمة . قال ابن دريد : هو تصحيف) .

(١) المحيط في اللغة ١/٢٢٠ و ٢/٢٥٣ و ٢٦١ .
(٢) المصدر السابق ١/٣٣٧ .

ونجده من جانب آخـر ينقل عن الخليـل ما يشعر بالشك في ما ينقـل ، كقوله : (وحكي عن الخليل)[1] ، أو (زعم الخليل)[2] . فضلاً عن هذا كله فإن مجموع نقوله عن العين التي ينسبها إلى الخليل لا تتجاوز الثلاثة والأربعين نصّاً ، كلّ نص يقع في سطر وبعض السطر . أما بقية النصوص التي ينسبها إلى الخليل فينقلها عن كتاب سيبويه وكتاب الغريب المصنف لأبي عبيد . وهذا النقل يعدّ قليلاً موازنة بحجم كتاب العين الذي يقارب كتاب الصحاح في حجمه .

ويمكن توجيه قلة نقله عن العين أنه ابتعد في نقوله عن المصحّف والمحرّف وما هو مضطرب ، لأن خطته ومنهجه : « نقل ما صحّ عنده من اللغة » ، كما أشار في مقدمة الصحاح ، وغالبـاً ما يشير إلـى الصحيح مكتفياً به . ففـي مادة (و ق ظ) من العين (الوقظ : حوض يجتمع فيه ماء كثير ليس له أعضاد ، وجمعه وقظان) . لا نجد هذه المادة في الصحاح في (و ق ظ) ، وإنّما نجدها في (و ق ط) بالطاء المهملة ، يقول : (الوقط والوقيط : حفرة في غلظ أو جبل يجتمع فيه ماء السماء ، والجمع وقاط) ، بينما يضعها الأزهري في (و ق ظ) بالظاء المعجمة ولكنه يخطئها ويشير إلى الصحيح .

---

(١) الصحاح : (م / جسس و زفف) .
(٢) المصدر نفسه (م / صلف و عهق) .

الخاتمـــــة

يهدف هذا البحث إلى إيضاح موقف الأقدمين ، وبخاصة علماء القرنين الثالث والرابع الهجريين ، من كتاب (العين) ، وهو كتاب له خطورته ومكانته في تاريخ الثقافة العربية ، ويعدّ كتاباً رائداً في تاريخ المعجم العربي .

لم تكن ولادة هذا الكتاب طبيعية ، أعني أن ظروف وضعه وتأليفه يحوطها الكتمان وتنقصها الإشارات الواضحة التي نعهدها في مثل هذا الشأن . فلقد عوّدنا الأقدمون ، في وقت مبكر ، على طرق عديدة لتوثيق الأقوال والأعمال والأفكار ، لا تزال حتى عصرنا هذا مقبولة شائعة .

فالخليل بن أحمد البصري عالم لغة وأدب ونحو ، له تلاميذ وأصحاب ، له مجلس ، أو قل له مجالس ، يرتادها أصحابه وغيرهم . له طريقة في السلوك والتفكير معروفة محمودة . لا نكاد نجد له ذامّاً ولا عائباً في عصره ولا في ما بعده . يتوفّى الله هذا العالم ، بعدها بنحو سبعين سنة يصل إلى مدينته البصرة كتاب ينسب إليه ، هو كتاب العين .

يجابه هذا الكتاب بإنكار أصحاب الخليل وأصحاب أصحابه ، موجّهين إليه النقد من جانبين :

١ ـ النقد الخارجي ، ونعني به عدم رواية الخليل الكتاب لأصحابه ، وهذا يعني عدم معرفتهم إيّاه وظروف تأليفه . وقد أجمع أصحابه على هذا الإنكار .

٢ ـ النقد الداخلي ، ويعني وضع الكتاب في ميزان النقد اللغوي ، من خلال مقابلة مادته مع ما أثر عن الخليل ، وبخاصة ما وعته صدور أصحابه ومؤلفاتهم ، ومنهم سيبويه وكتابه ، وما أثر عن العرب .

بحثنا هذا تناول الجانب الأول ، وهو النقد الخارجي ، فقط . فعرض له من جميع جوانبه ، ووصل إلى نتيجة تؤكد قولاً قديماً يقول بعدم رواية الخليل الكتاب ، وبالتالي عدم معرفة أصحابه به ، مما دعاهم إلى إنكاره وعدم النقل عنه وروايته .

لكنّ قوّة هذا الإنكار والرفض خفّت حدّتها ، وبخاصة عند البصريين ، فبدأت أيديهم تمتدّ إلى الكتاب لتقرأه ، فوجدت فيه شيئاً جديداً لم يعهدوه ، شيئاً في منهجه وترتيبه جعلهم يغيّرون نظرتهم إلى الكتاب . وكان ابن دريد أول من انعكس تأثير (العين) عليه ، فوضع كتابه الجمهرة بتأثير منه ، لكنه ظلّ بين الحين والآخر يوجه نقداً إلى مادته اللغوية ، وأنها ليست من الخليل وإنما من الليث .

هذه الفكرة وهذا الخط الذي سار عليه ابن دريد في حكمه على الكتاب هو المنهج الذي سار عليه معظم لغويي القرن الرابع باختلاف الطريق الذي سلكوه في التعبير عنها ، وهو أن الخليل ، رحمه الله ، رسم خطّة الكتاب ووضع أسسه ومنهجه ، أمّا حشو الكتاب ومادته اللغوية فليست من صنع الخليل ولا إملائه . وخير ممثل ، من لغويي القرن الرابع ، عبّر عن هذه الفكرة هو أبو منصور الأزهري صاحب تهذيب اللغة . فقد وجد في (العين) مادة لغوية صحيحة كثيرة لكنه لم يشأ أن ينسبها إلى الخليل وإنما إلى الليث بن المظفر . فاعتقاده قائم على أن جميع المادة اللغوية في الكتاب ليست للخليل ، على الرغم من صحة الكثير منها ، ما دام موجوداً إلى جانب هذا الصحيح شيء كثير أيضاً من الاضطراب والتصحيف والتحريف .

مصادر البحث ومراجعه

ابن درستويه — للدكتور عبدالله الجبوري
بغداد (مطبعة العاني) ١٩٧٤

الأمثـال (كتاب) — لأبي فيد مؤرج بن عمر السدوسي (ت ١٩٥هـ)
حققه : د. رمضان عبدالتواب
القاهرة (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر)
١٩٧١

أنباه الرواة على أنباه النحاة — لعلي بن يوسف القفطي (ت ٦٥٦هـ)
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
القاهرة (دار الكتب المصرية) ١٩٥٠ - ١٩٧٣

البارع في اللغـــة — لأبي علي القالي (ت ٣٥٦هـ)
تحقيق : د. هاشم الطعان
بيروت (دار الحضارة العربية) ١٩٧٥

بغية الوعاة — لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
القاهرة (البابي الحلبي) ١٩٦٤ - ١٩٦٥

تاريخ بغـــداد — للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)
بيروت - دار الكتاب العربي (طبعة مصورة
عن طبعة مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٣١)

تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
القاهرة (دار المعارف) ١٩٦٠ وما بعدها .

التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة بن الحسن الأصفهاني (ت ٣٦٠هـ)
تحقيق : محمد أسعد طلس
دمشق (مجمع اللغة العربية) ١٩٦٨

تهذيب الأسماء واللغات لأبي زكريا النووي (ت ٦٧٦هـ)
القاهرة (إدارة الطباعة المنيرية) بلا تاريخ

تهذيب اللغـة لأبي منصور الأزهري (ت ٣٧٠هـ)
تحقيق : عبدالسلام هارون وآخرين
القاهرة (الدار المصرية للتأليف والترجمة)
١٩٦٤ وما بعدها

جمهـرة اللغـة لأبي بكر بن دريد (ت ٣٢١هـ)
تحقيق : فرايتز كرنكو
الهند (حيدر آباد الدكن) ١٣٤٤هـ وما بعدها

حليـة الفقهـاء لأحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)
تحقيق : د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي
بيروت (الشركة المتحدة) ١٩٨٣

الخصائص لعثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)
تحقيق : محمد علي النجار
القاهرة (دار الكتب المصرية) ١٩٥٢ وما بعدها

الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث
د. محمد حسين آل ياسين
بيروت (دار مكتبة الحياة) ١٩٨٠

شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف
لأبي أحمد العسكري (ت ٣٨٢هـ)
(١) تحقيق : د. السيد محمد يوسف
دمشق (مجمع اللغة العربية) ١٩٨١
(٢) تحقيق : عبدالعزيز أحمد
القاهرة (البابي الحلبي) ١٩٦٣

الصاحبي في فقه اللغة
لأحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)
تحقيق : مصطفى الشويمي
بيروت (مؤسسة بدران) ١٩٦٣

الصحـــاح
لأبي نصر الجوهري (ت ٣٩٦هـ)
تحقيق : أحمد عبدالغفور عطار
القاهرة (دار الكتاب العربي) ١٩٥٦

طبقـات الشعـراء
لعبدالله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ)
تحقيق : عبدالستار أحمد فراج
القاهرة (دار المعارف) ١٩٥٦

طبقـات النحويـين واللغويـين
لأبي بكر الزبيدي (ت ٣٧٩هـ)
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
القاهرة (دار المعارف) ١٩٧٣

العباب الزاخر واللباب الفاخر
للحسن بن محمد الصغاني (ت ٦٥٠هـ)
تحقيق : الشيخ محمد حسن آل ياسين
بغداد (مطبعة المعارف) ١٩٧٧ وما بعدها

العيـن
(المنسوب) إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ)
تحقيق : د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي
بغداد (وزارة الثقافة والإعلام) ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥

الفاخـر
للمفضل بن سلمة الكوفي (ت ٢٩١هـ)
تحقيق : عبدالعليم الطحاوي
القاهرة (سلسلة تراثنا ـ وزارة الثقافة) ١٩٦٠

الفهرسـت
لمحمد بن إسحاق النديم (ت بعد ٣٨٥هـ)
تحقيق : رضا تجدّد
طهران (مطبعة دانشكاه) ١٩٧١

فهرسة ما رواه عن شيوخه
أبو بكر بن خير الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ)
تحقيق : فرنسشكه قداره زيدين
بغداد (مكتبة المثنى) ١٩٦٣

مجمـل اللغـة
لأحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)
تحقيق : الشيخ هادي حسن حمودي
الكويت (معهد المخطوطات العربية) ١٩٨٥

المحيـط في اللغــة — للصاحب بن عبّـاد (ت ٣٨٥هـ)
تحقيق : الشيخ محمد حسن آل ياسين
بغداد (وزارة الثقافة والإعلام) ١٩٧١ - ١٩٨١

مختصر العيـــن — لأبي بكر الزبيدي (ت ٣٧٩هـ)
تحقيق : علال الفاسي ومحمد بن تاويت الطنجي
الدار البيضاء (منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية) ١٩٦٣

مراتب النحويـيـن — لأبي الطيب اللغوي (ت ٣٥١هـ)
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
القاهرة (دار نهضة مصر) ١٩٧٤

المزهر في علوم اللغة وأنواعها — لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)
تحقيق : محمد أحمد جاد المولى وآخرين
القاهرة (البابي الحلبي) ، بلا تاريخ

المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات — لأبي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ)
تحقيق : صلاح الدين عبدالله السنكاوي
بغداد (منشورات وزارة الأوقاف) ١٩٨٣

معجم الأدبـاء — لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)
نشر : أحمد فريد رفاعي
القاهرة (دار المأمون) ١٩٣٦ وما بعدها

المعجم العربي : نشأته وتطوره
للدكتور حسين نصّار
القاهرة (دار مصر للطباعة) ١٩٦٨

مقاييس اللغة
لأحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)
تحقيق : عبدالسلام هارون
القاهرة (البابي الحلبي) ١٩٦٩ وما بعدها

المقتضب
لأبي العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ)
تحقيق : محمد عبدالخالق عضيمة
القاهرة (المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية)
١٩٦٣ وما بعدها

نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء
لأبي البركات الأنباري (ت ٥٧٧هـ)
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
القاهرة (دار نهضة مصر) ١٩٦٧

وفيات الأعيان
لابن خلكان (ت ٦٨١هـ)
تحقيق : د. إحسان عباس
بيروت (دار الثقافة) ١٩٦٨ وما بعدها